الفصل الثاني

الاستعدادات الخُلُقية عند العرب قبل الإسلام

من المعروف أن رسول الله r كان يقول: «**إنما بُعثت لأتمّ مكارم الأخلاق**» وهذا يعني أن الأخلاق كانت موجودة عند العرب وغيرهم وأن عمل الدعوة التي أتى بها رسول الإسلام إنما هو إتمام لهذه الأخلاق وارتقاء بها إلى الكمال.

كان للعرب في جاهليتهم نصيب من الأخلاق، ينبع من الفطرة الصافية والشعور العفوي، ويتمثل فيما يدور على ألسنتهم في الأحاديث المروية، والأمثال السائرة، أو فيما ينظمه الشعراء، ويرسلونه حكمة قائمة تخضع لها الأجيال، وفيها حضٌّ على المكارم، وصد عن النقائص، ومن الجائز والمرّجح أن هذا شديد الوثوق بالعقائد الحنيفية وما إليها من حيث الأصل أي بعقيدة التوحيد.

غير أن هذه الأمثال والوصايا والحكم، لا تخرج عن أن تكون مواقف أخلاقية، تختص بناحية من نواحي الحياة، وتتناول أحد الموضوعات الجزئية، ولا تكون تفكيراً منظماً متسلسل الأجزاء، منسق العناصر تتضح فيه المبادئ والنتائج فتؤلف مذهباً أخلاقياً معيناً وإنما هي كما يقول (الشهرستاني): «فلتات الطبع وخطرات الفكر». أي إنها استجابات عفوية تخطر بالبال وتصبح مع الأيام حكماً سائرة وأقوالاً حافزة فمن ذلك مثلاً قول زهير في ميميته المشهورة:

ومهما تكن عند امرئ من ... وإن خالها تخفى على الناس

ومن يجعل المعروف في ... يجد حمده ذماً عليه ويندم

وقول السموءل:

إذا المرء لم يدْنس من اللوم ... فكل رداءٍ يرتديه جميل

ومن الحكم العربية المشهورة: «إن الحذر لا ينجي من القدر»، «سوء الظن عصمة»، «آفة الرأي الهوى»، «إذا قام جناة الشر فاقعد».

ومنها وصيّة زهير بن جناب الكلبي لأولاده: يا بني قد كبرت سني، وبلغت حرساً من دهري، فأحكمتني التجاربُ والأمور تجربةً واختباراً، فاحفظوا عني ما أقول: إياكم الحذر عند المصائب، والتواكل عند النوائب، فإن ذلك داعياً للغم، وشماتة العدو، وسوء الظن بالرب. وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم إلا ابتلوا، ولكن توقعوها، فإن الإنسان في الدنيا غرضٌ تعاوره الرماة، فمقصر دونه، ومجازٍ لموضعه، وواقع يمينه وشماله ثم لا بد أن يصيبه.

●

ولما جاء الإسلام وآمن به العرب راحوا يسعون لتحقيق رسالته، ونشر أفكاره ومبادئه وهكذا اتسع وتعمق مجال تفكيرهم، واغتنت اهتمامات جديدة لديهم، وتركزت حول موضوعات وآفاق محدثة.

لقد صار عليهم أن يحملوا رسالة التوحيد إلى العالم، تلك الرسالة التي تتلخص (بإنسانية واحدة، تعيش في عالم موحد، بظل إله واحد).

- إنها رسالة قيم وأخلاق للإنسانية عامة دون تمييز: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}** [الحجرات: 13] فهي رسالة للإنسان حيث كان، لا للعرب وحدهم.

- وهي رسالة إيمان تصل بين الإنسان والعالم من جهة، وبين الإنسان والخالق من جهة أخرى.

- وهي رسالة علم وإدراك لعالم موحد دقيق ومنظم.

ولما نشر العرب رسالة الإسلام اضطروا إلى مواجهة العقليات الأخرى والأفكار السائدة، فانكبوا يترجمون بنهم مؤلفات أمم اليونان والهند والفرس والسريان ينقلونها ويتفاعلون معها، ونتجت عن

التفاعل بين هذه الحضارات أفكار جديدة، وعلوم ناشئة ومستقلة، وأخذ المفكرون الإسلاميون يكوّنون المذاهب المتسقة التي عالجت القضايا الأخلاقية، وتناولتها بكثير من الاهتمام والتدقيق.

وكنا نتمنى أن نقوم بعرض تاريخي موسع يتناول تطور المشكلة الخلقية

عند المفكرين العرب لكننا اكتفينا بملاحظة إن هؤلاء المفكرين الذين تناولوا الأخلاق، وبحثوا فيها، كانوا فرقاً متفرقة تميزت عن بعضها بنزعات شتى واتجاهات عديدة[1]:

(أ) فمنهم من سيطرت على كتبه النزعة الدينية الخالصة، عُني فقط بالأخلاق العملية يستمدها من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وذلك: على غرار أبي الحسن البصري الذي توفي عام 450 للهجرة، وكتب كتاب: (أدب الدنيا والدين).

(ب) ومنهم من سادت كتاباته النزعة الدينية مع شيء من التصوف وذلك على غرار أبي حامد الغزالي.

(جـ) ومنهم من سادت كتاباته النزعة الفلسفية مع الإحتفاظ بالروح الإسلامية وقد عُرف هؤلاء واشتهروا بفلاسفة الإسلام: كالكندي، والفارابي، وإخوان الصفا، وابن مسكويه (في المشرق)، وابن ماجة، وابن طفيل وابن رشد ومحي الدين بن العربي (في المغرب).

% % %

(1) لم يكن دخول الفلسفة إلى العالم الإسلامي مجرداً من نوايا التأثير السلبي وبث التشكك في الفكر الإسلامي عن طريق عرض وجهات نظر غريبة وأجنبية.